مقدمة

(الطبعة الثانية)

منذ نيف وعشرين عاماً، أيام بدأت تستهوينا دراسة النواحى المَرَضية من علوم النفس ، كان اسم « ألفرد أدلر » يطبق الآفاق ، وكانت مبادئ المذهب الذى دعا إليه وأسماه « علم النفس الفردى » تجتذب أنظار الجماهير المثقفة ، ويجد فيها كثير من الناس ما يشبع رغبتهم فى فهم جانب كبير من أشكال السلوك وألوان الخلق وأنماط الشخصية فى حالات الصحة والمرض .

كان هذا الذيوع يعود إلى أن مباحث علم النفس التجريبية كانت تقتصر حينذاك على دراسة نواح جزئية مقتطعة من تفكير الإنسان ومشاعره ، ولم تكن تحفل كثيراً بدوافع سلوكه ولا بما يجرى فى أعماق نفسه، فيدفعه إلى ذلك السلوك فى مجموعه، كما يبدو من تصرفات المرء إزاء مشاكل الحياة الكبرى والصغرى، وما تعج به هذه الحياة من ألوان النشاط والتفاعل وصنوف العمل والعلاقات الإنسانية . على حين أن آراء سيجمند فرويد ومباحثه التى بدأ الناس يفطنون إلى أهميتها فى أوائل هذا القرن ، وما أثبته هو وأتباعه من أن الحياة النفسية تعتمد فى الجانب الأكبر الغالب منها على كثير من العوامل والخيل اللاشعورية التى توجه الفرد دون أن يفطن إليها ودون أن يدور بخلده ما لها من سطوة وخطر ، فتحت أمام الباحثين فى علوم الإنسان ميادين جديدة بدأت تسترعى منهم الانتباه وتستلزم العناية . غير أن انصراف فرويد والكثرة من تلاميذه — فى أوائل عهدهم بالبحث — إلى دراسة الميول الجنسية وتطورها وأشكال تأثيرها فى سلوك الأفراد والجماعات دفعت إلى

استنكار كثير من الناس لجانب كبير من التحليل النفسى وإلى ضيقهم به ونقدهم إياه . ومن هنا كان — على ما يبدو — ترحيبهم بانفصال أدلر وبما حاوله من إقامة مذهبه بديلا عن التحليل النفسى ؛ فانتشرت آراء أدلر وكثرت كتبه وأخذ كثير من المفكرين يعملون على تناولها بالدراسة والاستقصاء .

كان هذا كله يجرى — أكثر ما يجرى — بعيداً عن مجال دراسة علوم النفس فى الجامعات والمعاهد الخاصة . وكانت الكثرة الغالبة من أصحاب علم النفس حتى أواخر الربع الأول من هذا القرن لا تعنى كما ينبغى بتلك المباحث ، إن لم تكن تنظر إليها بعين الزراية والاستخفاف . وكان ذلك هو الحال فى العالم الغربى بينما كانت دراسة علوم النفس فى مصر — من أية ناحية — ما زالت فى مهدها ، والقائمون عليها فى الجامعة المصرية وما إليها قلة ضئيلة تحاول أن تبدأ بتهيئة الظروف للدراسات النظرية الخالصة أو لبعض الجوانب التطبيقية العاجلة التى تتصل مثلا بمسائل التربية والتعليم .

ومن ثم كانت دراسة « علم النفس الفردى» وما يتصل به — لذلك العهد — نوعاً من الخروج على المألوف ، لا يرجى له تشجيع ولا ينتظر أن يكون السبيل إليه معبداً ميسوراً . فاستغرق منا البحث سنوات طالت حتى فرغنا منه بكتابة هذه الصفحات التى يتضمنها هذا الكتاب . ثم كان من حسن طالعه — بعد طول المصابرة — أن يلقى من الصديق الأستاذ الدكتور يوسف مراد كل احتفال ورعاية دفعته إلى بذل كثير من الجهد المشكور حتى أصدره أول كتاب من السلسلة التى تنشرها جماعة علم النفس التكاملى . وكان من التوفيق أيضاً أن نفدت الطبعة الأولى منذ زمن طويل واشتدت الحاجة إلى طبعة ثانية لم يتح لنا إعدادها إلا هذه الأيام .

لكن أحوال العلم خلال تلك السنوات قد تغيرت هنا وهناك ، إذ قد تقدم التحليل النفسى وانتشر فى أوربا وأمريكا، حتى لقد وصل إلى بعض

بلاد آسيا وأستراليا ، انتشاراً لم يقتصر على زيادة عدد المشتغلين به فعلا من النواحى النظرية والعلاجية والتطبيقية ، بل أخذ به كثيرون جداً من رجال الطب والتربية وعلوم الاجتماع ، بعد أن تبين لهم نفعه فى البحث والعلاج والتوجيه . وشرع أصحاب علم النفس يستخدمون طرائق العلم التجريبية والإحصائية فى دراسة نواحيه المختلفة ، وأصبحت دراسة أصول التحليل جانباً أصيلا من دراسة علوم النفس على أى مستوى من المستويات ، بل لقد أنشئت له فى صميم الجامعات أقسام خاصة ، وتعددت المعاهد التى خصصت لتعليمه ولإعداد من يودون الاشتغال به .

هذا كله بينما انطفأت لمعة الآراء التى كان يقول بها أدلر وتفرق أتباعه أشتاتاً ، ولم يخلف هو أو هم مكاناً واحداً يعمل على نشر آرائه أو تعليم طريقته . وإذا كان هناك الآن من يفيد حقاً من بعض أفكاره فهم أصحاب التحليل النفسى الذين أسرف هو فى نقدهم من قبل ! لكنهم اقتبسوا منه برغم ذلك ما تبينت رجاحته من مذهبه بعد أن وضعوه فى المرتبة التى تناسبه من الإطار العام لأسلوبهم فى البحث وطريقتهم فى العلاج .

أما عندنا فقد تغيرت أحوال علوم النفس على وجه ما ، لكنه لا يقرب ألبتة من أشواط التقدم التى قطعتها العلوم الأخرى . فما زال المشتغلون به فئة قليلة ، وما زال رواده يكافحون كفاحاً عسيراً فى سبيل النهوض به وتأسيس الأماكن اللازمة لتعليمه والبحث فيه . هذا إلى ازدياد عدد الأدعياء الذين يعملون ، بل يعبثون فى ميادين العلاج والتطبيب النفسى . وهذه ظاهرة — على خطورتها — يبدو أنها لا يمكن أن تعالج إلا بتأسيس المعاهد والمراكز اللازمة لإعداد من يصلحون للعمل فى هذه الناحية ، وبنشر الكتب والمؤلفات الأصيلة فيما يتصل بأمراض النفس وعلاجها .

وقد تطلب منا إعداد الكتاب للطبعة الثانية أن نعاود قراءته مرات ، فلم نعثر على شىء يستدعى التبديل أو التغيير فى صلب مادته . ذلك لأنا كنا قد وقفنا

مع أدلر — من قبل — حيث وقف هو وأتباعه ؛ ولم نعثر رغم متابعتنا لهذه الأبحاث على أية إضافة أو تعديل فيما يختص بعلم النفس الفردى كما يذهب إليه أصحابه .

أما فيما يتصل بالجانب الذى كنا قد عرضناه، على سبيل التمهيد، من مبادئ التحليل النفسى فقد استلزم منا زيادة فى إيضاح بعض المادة ؛ بل استلزم منا أن نكمل جانباً من المعلومات التى ذكرناها عن التحليل النفسى ، وأن نصحح بعض وجوه النقد التى كنا قد أخذناها عليه حينذاك لنقص معرفتنا به ، نقصاً هيأت لنا الظروف بعد ذلك أن نعمل على استكمال بعضه .

هذا إلى أن الجانب الذى ألحقناه بالكتاب خاصاً بالعيادات النفسية ما يزال فى مجموعه صورة من النظام العام ومن شكل العمل الذى تسير وفقه هذه العيادات فى البلاد الأخرى . ولو أن الصورة التى رسمنا خطوطها العامة لا تمثل ما يجرى فى هذه العيادات من تفاعل وحيوية ، إذ ينقصها من تفصيل دقائق العمل وطرق التشخيص وأساليب العلاج ما لم نر زيادته على هذا الملحق ، بل أبقيناه إلى فرصة أخرى نرجو أن تسمح له بالظهور فى الوقت المناسب .

القاهرة ، مارس ١٩٥٢

إسحق رمزى

المحلل النفسي بعيادة لندن سابقاً
دكتور فى علم النفس من جامعة لندن
عضو الجمعية البريطانية للتحليل النفسى
أستاذ علم النفس المساعد بجامعة إبراهيم